

أهمية التفكير في خلق الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. نعلم أن أول ما يجب على الإنسان معرفة ربه، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام، وأهلها وأغلاها معرفة ربه. وقد تعرف الله تعالى إلى خلقه بآياته وبمخلوقاته، ونصبتها دلالة على قدرته وعلى كمال تصرفه، ولفت الأنظار إليها؛ حتى يعرفوا بالنظر والتأمل والتفكير أن هذه الآيات وهذه المخلوقات دالة على عظمة وقدره من أوجدها. وكلها من خلق ربنا سبحانه وتعالى بإيجاده وتكوينه، وفيها آيات وعبرة تدل على عظمة مَنْ أوجدها. فإذا تفكر المسلم بعقله ويفكره في أصغر مخلوقات الله تعالى رأى فيها عجائب، وآيات بينات باهرة، دالة على عظمة من أوجدها سبحانه وتعالى. فلو تفكر في خلق العوضة التي هي من أصغر خلق الله تعالى، التي نشاهد، لوجد فيها الآيات والعجائب فإن هذه العوضة مع صغرها تبصر، وعينيها ما لا يكون مقدار العين، بصرها أقوى من بصر الإنسان، فإنها تبصر مساماً الإنسان، في جسد الإنسان وفي جلده منافذ دقيقة، وهي التي يخرج منها العرق، هذه المنافذ لا تبصرها أنت؛ حتى ولا باستعمال مكبر أو مجهر، فإنك لا تبصرها؛ ولكن هذه العوضة تبصرها؛ ولأجل ذلك تقع عليها. هذا دليل على أن الله تعالى أعطاها قوة بصر، كذلك أيضاً أعطاها الله تعالى الآلة التي تخرق بها الجسد، شبيهة بخرطوم الفيل، آلة دقيقة محددة، تمدها لتخرق الجلد حتى تصل إلى الدم؛ لتمتص من الدم، هذه الآلة، هذا الخرطوم الدقيق المحدد فيه أيضاً جوف مجوف، يدخل منه الدم الذي تمتصه إلى أن يصل إلى جوفها. لا شك أن هذا دليل على قدرة القادر سبحانه؛ حيث أعطاها خلقها كاملاً، فلها أعضاء، ولها أفعال تجري منها ذلك الطعام الذي تأكله والذي تتغذى به. وكذلك أيضاً من أصغر مخلوقات الله تعالى: هذه الذرة التي بصر الله تعالى بها المثل في حفاتها وفي صغرها، دائماً يمثل الله بها على الحفارة، كقوله تعالى: { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ } فالذرة: هذه الحيوان الصغير، الذي هو من أصغر مخلوقات الله تعالى، ركب الله له قوائم يمشي عليها، ولقوائمه مفاصل، ولها أيضاً أصابع تتمسك بها، ولأجل ذلك تصعد في الحيطان، ولو كانت الحيطان ملساء -يعني صقيلة- تتمسك بها. وكذلك أيضاً تتغذى، تأكل مما يسر الله تعالى لها وتتوالد، يعني: يكون لها أولاد، بيض تبيضه ثم بعد ذلك يفقس فيكون مثل الأربع الفصول، مع لها أيضاً فهم، ولها إدراك، ولها معرفة. لا شك أن هذا دليل على قدرة الله سبحانه وتعالى. ذكر ابن القيم رحمه الله في بعض كتبه: أن رجلاً حكى أن ذرة من الذرات وجدت قطعة لحم صغيرة، فجزت عن نفسها، فوجدت أنها ذرة، وجاءت معها عدة من الذر -ثلاث أو أربع- لو اجتمعن على تلك القطعة لسحبها وحملنها. لما رآهم قد أقبلن رفع تلك القطعة، فجنن ونظرن ولم يجدها في الموضوع الذي كانت تعده فيه، ثم رجعن وتيقنت الأولى، ولما بقيت جاء بتلك القطعة ووضعها، فلما وضعها ورأها وشممتها حاولت أن تجرها فلم تقدر، فعند ذلك ذهبت وجاءت بذلك الذي أحبرته من قبل، فلما أقبلن رفع تلك القطعة وأبعدوا، فالتمسن على وجهها، فرجعن وبقيت الأولى، ثم إنها لما بقيت وضع تلك القطعة لها، ولما وضعها وشممتها، ذهبت أيضاً تريد أن يأتي معها من قبلها، فلما رآهم وقد أقبلن رفعها، فلما جنن ولم يجدها عمدن إلى تلك الذرة، فعضت كل واحدة منهن قائمة من قوائمها، وقطعت أي أنها كلفتهن وأتعبتهن وكذبت عليهن!! فهذا دليل على أن الله ركب فيهن عقولا وأفهاما يناسب ما خلقن له، مع أن الله تعالى ما كلف هذه الدواب، وإنما خلقت آية وعبرة للمعتبرين. يعني: أن الله تعالى جعل هذه الدواب، وهذه الحشرات، وهذه المخلوقات الصغيرة آية وعبرة للمعتبرين، أي: لمن يتفكر ممن أعطاهم الله تعالى العقل... الإنسان فإن الله تعالى فصله بالعقل، حيث يتفكر ويتأمل ويتعقل ويعرف أن الذي أوجد هذه الموجودات قادر على كل شيء، وأنه سبحانه ما خلق هذه المخلوقات عبثاً، ولم يتركها هملًا، وأنها ما خلقت أنفسها، بل لا بد لها من خالق خلقها، سواء كانت من الحيوانات المتحركة، أو من النباتات النامية، أو من الجمادات، أن كلا منها دليل على قدرة من خلقها وأوجدها، إذا تأمل فيها العاقل بعقله ويتأمله بصره. فإن الله تعالى يرزق في البصيرة ويعرف بذلك عظمة من أوجد هذه الموجودات. إذا كان ذا بصيرة في أمر الله تعالى وفي خلقه وقضائه وقدره. وقد أخبر الله تعالى بأنه الذي خلق المخلوقات العلوية، فخلق السموات وأخبر بأنها سبع { سَبْعًا سُبُاطًا } { سَبْعٌ سَمَواتٍ طِبَاطًا } بعضها فوق بعض، في قوله تعالى: { وَتَبَيَّنَ فَوْقَكُمْ سَبْعًا سُبُاطًا } أي سبع مخلوقات بناهن الله تعالى، لا يعرف قدره إلا هو وحده، وصفهن سبحان، أي: أحكَمَ خَلْقَهُنَّ. كذلك أيضاً وصفهن بقوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّا خَلَقْنَا لَكُمْ سَمَواتٍ طِبَاطًا } أي طبقات فوق طبقات، بعضها فوق بعض. لا شك أيضاً أن ذلك دليل على عظمة وقدره من أوجدها. وكذلك أيضاً أخبر بأنه خلق لنا هذه الأرض، وأنه بسطها، وأمرنا بأن نتأملها ونتفكر فيها، لنأخذ من ذلك عبرة على عظمة من أوجدها وخلقها، إذا مشيت في الأرض كما أمرك الله في قوله تعالى: { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا } الذي يسير فيها يجد فيها عجائب تدل على عظمة الله سبحانه وتعالى. فإنك تسير مثلاً في وقت من الأوقات في أرض صحراء تراهية مستوية، لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً، ثم تنتقل بعد ذلك إلى أرض رملية أي: فيها كُتب مرتفعة ومنخفضة، وتسير أحياناً بعدها وتجدر أراض غير مستوية، بل فيها مرتفعات كتشبه جبال وإن لم تكن جبالاً، وتسير أيضاً في أرض أخرى، فتجد الأرض الجبلية التي فيها جبال متوسطة، أو الجبال الشاهقة المرتفعة. هذه لونها كذا وكذا، كما في قول الله تعالى: { وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَيَاتٌ سُوْدٌ } أي: أنه جعلها مع، منها ما هو بيض، ومنها ما هو حمر، ومنها ما هو سود غرايب، يعني: شديد سوادها. فجعلها الله تعالى عبرة وحل فيها عظات آيات ومنافع، وأحياناً تكون تلك الجبال مع ارتفاعها مستقرة لكثير من الناس، فيسكنون في قمم الجبال، وقد يجدون فيها مستقرة فينبئ فيها نبات يأكلون منه، ويرعون بهائهم، فينبئ فيها شيء من النباتات التي هي غذاء للإنسان، أو غذاء للحيوانات. وقد يكون أيضاً فيها مستقر للمياه مع ارتفاعها، يكون في أجواف تلك الجبال مستودعات للماء إذا نزل الماء حفظته، ثم يستخرجونه. كما توجد أيضاً تلك المستودعات في الأرض في كثير من بقاع الأرض، أي جعل الله تعالى هذه الأرض فهي محوفة، إذا جاء المطر امتلأت تلك المستودعات التي فيها، والتي في جوفها فامتلات من هذا الماء، وربما إذا امتلأت ينبع فوق الأرض، ويجري عيوناً، كما في قول الله تعالى: { وَقَفَّرْنَا بِهَا مِنَ الْغُيُونِ لِتَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ } أي: ففَرَّجَ اللهُ لهم الأرض عيوناً، وأنبع منها هذا الماء، أو جعله مستودعاً فيها، يستخرجونه بأنهم وأجهزتهم، يحتاج إليه للشرب أو لسقي الدواب، أو لسقي الأشجار، وما أشبه ذلك. وهكذا أيضاً إذا أنزل الماء، فإن هذه الأرض المستوية تثبت بأمر الله تعالى أنواعاً من النباتات مع اختلافاها، فمنها ما يكون طعاماً وعلفاً للإنسان، ومنها ما يكون علفاً للطيور، ومنها ما يكون علفاً للدواب وللوحوش وللحشرات وما أشبه ذلك. كلها جعل الله تعالى في هذه الأرض ما تستقر له، وما تعيش به. لا شك أن ذلك دليل على عظمة وقدره الله تعالى على كل شيء. كذلك أيضاً: إذا نظرنا إلى هذه البحار التي تمتد على وجه الأرض، أي شيء يمددها! لماذا ما نصبت مع تتابع القرون عليها؛ ألوف السنين ما نصبت ولا قل ماؤها، ولا غارت بل مع تتابع القرون، وهي ثابتة مستقرة، ممتدة الأطراف لا يرى طرفها. ثم إن الله تعالى علم الإنسان الأدوات والآلات التي يسير بها في البحر، فعلم الله نبيه نوحاً صنع سفينة كبيرة حمل فيها من آمن معه، وحمل فيها الدواب، وقال الله تعالى له: { اجْمَلْ فِيهَا مِنْ الْهَاءِ بِلْ يَطْفُو فَوْقَ الْمَاءِ، لَا يَغْوِسُ فِيهِ، فَأَلْهَمَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَهُ نُوحًا صَنِيعًا كَبِيرَةً حَمَلُ فِيهَا مِنْ آمَنِ مَعَهُ، وَحَمَلُ فِيهَا الدَّوَابَّ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى لَهُ: { اجْمَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ } من كل الدواب، ومن كل الحشرات، ومن كل البهائم، حشورها الله تعالى له، فحمل من الأغنام مثلاً، من البقر، من الإبل، من الحمير، من الخيل، من السباع، من الفيلة، وما أشبه ذلك. { مِنْ كُلِّ رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ }؛ لأن الله حكم بأن ذلك العرق يُعْرِقُ مَنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، حتى البهائم التي ليس لها ذنب، ولكن قضى الله تعالى بإهلاكها، كما يهلكها إذا شاء. فهذه السفن التي أول من صنعها نبي الله نوح آية من آيات الله، قال تعالى: { وَإِنِّي لَأَمْلَأُ الْبَحْرَ مِنْكُمْ فِي الْيَوْمِ وَمِثْلَهُ مَآءٌ يَرْتَدُّ إِلَيْهِ بِحِجَابٍ مُرْتَفَعٍ } فبدل في ذلك المراكب... تدخل في قوله: { وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ } فهي خلق الله تعالى وإيجاده. المراكب البحرية، والمراكب الجوية، والمراكب البرية كل ذلك من آيات الله سبحانه وتعالى. جعل الله في هذه الأرض هذه المواد، التي تخلق منها هذه الأدوات. ومن حكمته أنه جعل الأرض رداء قابله للنبات، تثبت ما يحتاج إليه البشر. لو كانت الأرض صخرية أو لو كانت حتى من ذهب أو من فضة لا تثبت نباتا، لهلك مَنْ عَلِمَهُ؟! الله جعلها قابله للإنسان، وهذه من آيات الله تعالى؛ لأنك تدفن الحبة فيها، ثم تسقيها، فتنبئ ويكون فيها هذا السنبل المترابك حياً، مما يكون غداً، ويكون فيها أيضاً نباتات مختلفة، منها ما هو غذاء للإنسان، ومنها غذاء للبهائم إلى غير ذلك. لا شك أن هذا دليل على قدرة القادر أن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء، وإذا عرفنا أن الله سبحانه وتعالى نصب الأدلة التي تدل على عبادته على كمال قدرته وعلى أن لهم ربا قادراً على كل شيء، فإن أهل العقول وأهل المعرفة يدعون لهم، ويعترفون بأنه سبحانه على كل شيء قدير، وأنه هو المستحق للعبادة، وأن خلقه الذين هم عبيد مملوكون له واجب عليهم أن يدعوا بطاعته، وأن يسمعوا ويطيعوا، وأن يتقربوا إليه بالقربات، وأن يتبعوا شرعه، وأن يمتثلوا أمره، ويتركوا زجره، فإن ذلك حقه عليهم، بعد أن عرفوا أنفسهم، وعرفوا ربهم بآياته وبمخلوقاته وبمعجزاته، وعرفوا شرعه الذي أنزله على رسوله، وضمته كتبه، فمن رزقهم الله تعالى فكراً وعقلاً ثاقباً فإنهم يعترفون لربهم بفضله وإنعامه عليهم، وبحرصون على أن يدبوا لله تعالى بالعبودية. يعترفون بأنهم عبيد مملوكون له سبحانه، ثم يحرصون على أن يتقربوا إلى ربهم بكل ما يحب فعله منهم، من العبادات التي كلفهم بها، فيفعلونها، ويترك المحرمات التي نهاهم عنها فيتركونها، وما أشبه ذلك. لا شك أن هذا كله هو واجب العباد، ولكن إنما يتذكر أولو الألباب، إنهم ينبغي لذلك، ويعترفون به أهل المعرفة، وأهل الفهم والإدراك، وأهل العقول الزاكية. فأما مَنْ سُلِّبُوا الفهم والإدراك، فإنهم لا يعيترون، ولو رأوا كل آية! كما في قول الله تعالى { وَإِنْ تَرَوْا كَلَّ آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا } يعني: الذين حكم الله تعالى عليهم بأنهم محرومون، وقال الله تعالى: { وَمَا نُعْنِي الْأَبْأَتِ وَالذُّرَّ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ } فهم يرون آيات الله، ويشاهدون مخلوقاته، ويرون فيها عجائب صنعته، ومع ذلك لا يعيترون ولا يلتفتون إلى دلالاتها، فيكون ذلك سبباً في حرمانهم من طاعة الله تعالى، وحرمانهم من ثوابه في دار كرامته، فيكونون أشبه بالبهائم التي لا عقول لها، فقد ضرب الله تعالى المثل لهم بهذه الحيوانات ونحوها، كما في قوله تعالى: { مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ثُمَّ لَا يَقُولُ } هكذا مَثَلُ: { الَّذِينَ خُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا } وهكذا أيضاً الذين أنعم الله عليهم وأورثهم هذا الكتاب في قوله تعالى: { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا } فالذين أورثهم هذا القرآن ولكنهم لم يعملوا به، يصدق عليهم هذا المثل، أنهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً!! لو أن حماراً من الحمير الأهلية التي تُرَكَّبُ حَمَلٌ عَلَيْهِ مِثْلَ مَائَةِ كِتَابٍ، هل يستطيع؛ لا يستفيد ولا يدرى ما حمل عليه! وكذلك أيضاً ضرب لهم مثلاً أيضاً بالحمار، في قوله تعالى: { قَمَا لَهُمْ عَنِ الذِّكْرِ مَعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُسْتَقَرَّةٌ قَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ } أي: إنهم يُوعَطُونَ ولا يتعطون، يعني: يهربون من المواعظ، ويهربون من أماكن الذكر، إذا سمعوا الذكر أعرضوا عنه، وإذا سمعوا موعظة هربوا منها. ضرب الله مثلاً لهم بالحمار إذا رأت الأسد، فإنها تهرب منه، سواء كانت حمراً وحنينية يعني.. التي هي الوعول ونحوها أو حمراً أهلية، الأهلية التي هي الإنسانية، كلها إذا رأت قسورة -الذي هو الأسد- هربت، فهذا مثل سوء لمن حرماً من معرفة ربهم، وحرماً من ذكره والانتعاض والتذكر وحضور مجالس الذكر. فالإنسان عليه أن يربأ بنفسه عن أن يكون يشبهها بهذه البهائم التي لا حساب عليها، فلا يهرب من أماكن الذكر ونحوه بل يتأمل ويتفكر ويتعقل.. فيه. وكذلك أيضاً ضرب الله تعالى لهم مثلاً في قوله تعالى { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذِّبْنِ الَّذِي يُتَّبَعُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ضُمُّ كُفْرٌ عُمِّي فَهُوَ لَا يَقُولُونَ } هكذا ذكر الله تعالى هذا المثل. التعيق: تعيق الراعي، ينبع بالغنم، هل الغنم تفهم؟ لا تفهم. ولكنها تسمع صوتاً وتتبع ذلك الناعق. الذي ينبع بما لا يسمع إلا دعاءً وبداءً، سماعه من غير عقل. لا شك أن الغنم والإبل ونحوها إذا تعق لها الراعي فإنها تتبعه، ولكن هل تفهم ما يقول؟ إنما مجرد الصوت تتبعه، ولا تفهم إذا قال لها: قفي، ولا إذا قال لها: اذهبي يمينا أو شمالاً! لا تفهم ذلك؛ لأنها بهائم. فهذا مثل الذين كفروا { كَمَثَلِ الذِّبْنِ الَّذِي يُتَّبَعُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً } فإذا عرفنا أن الله تعالى نصب هذه الآيات والدلالات، فإنما ينتفع بها أهل العقول وأهل الفهم وأهل الذكاء الذين استعملوا عقولهم فيما ينفعهم. دون من صدَّ بقلبه عن ذلك أو جعل علمه وعقله وتفكيره في أمور دنية.